****

[](http://www.alukah.net/)

**المقاصد العلمية والعملية**

**في سورة العلق**

**تأليف**

**محمد بن أحمد رفيق**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**مقدمة**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن مما لا شك فيه، أن تفاسير القرآن قد فاقت الألفين، وكل مفسّر إلا وآثر منهجاً سار عليه، فصنّف جمهور من العلماء ـ في التفسير ـ قديما وحديثا، تصانيف مختلفة الأوصاف، متباينة الأصناف، فمنهم من احتج بالأثر، ومنهم من استعمل الرأي والنظر، ومنهم من آثر الاختصار، ومنهم من طوّل حتى كَثّر الأسفار، ومنهم من تكلم في بعض فنون العلم دون بعض، ومنهم من اعتمد على نقل أقوال الناس، ومنهم من عول على النظر والتحقيق والتدقيق، ومنهم من اهتم بالبلاغة والنكت واللطائف، ومنهم استقصى الأحكام الفقهية والقواعد الأصولية، وكل أحد سلك طريقا نحاه، وذهب مذهبا ارتضاه.

ومع ذلك، فلن يُغني تفسير عن تفسير، إذ قد يفتح الله تعالى على عبد من عباده فهما لم يُسبق إليه، كما جاء في صحيح البخاري من حديث مطرف قال: سمعت الشعبي قال: سمعت أبا جحيفة قال: سألت عليا رضي الله عنه: "هل عندكم شيء مما ليس في القرآن ـ وقال مرة: ما ليس عند الناس ـ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهما يعطى رجل في كتابه، وما في الصحيفة .قلت: وما في الصحيفة قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يُقتل مسلم بكافر".

وقد اعتنيتُ بتفسير القرآن وعلومه أكثر من عشرين سنة، حيث ألقيتُ عِدّةَ دروس في التفسير ـ من عام 1412ه إلى 1436 ـ وكانت المصادر المعتمدة في تحضيره كثيرة، منها: تفسير ابن كثير، والجواهر الحسان، والكشاف للزمخشري، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وإعراب القرآن ومعانيه للزجاج، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، والناسخ والمنسوخ للقاسم ابن سلام، وكتاب التفسير من صحيح البخاري، وتيسير الكريم المنان للشيخ السعدي، وغيرها.

ثم ألقى الله تعالى في رُوعي ـ هذه السنة 1440 ـ كتابةَ تفسير جامع مع تنزيله على أرض الواقع تنزيلا يواكب المستجدات، ويجعل القارئ يتفاعل من السورة ومقاصدها، والآيات وأبعادها. فكانت هذه السورة ـ سورة العلق ـ هي أول سورة أستفتح بها هذا التفسير المبارك[[1]](#footnote-1)، لكونها أول سورة نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمعتُ فيها ما تفرق في تفاسير السلف والخلف، متأملا فيها معالم نزولها، ومشيرا إلى ما ينبغي تنزيله على الواقع المعاصر، ومستنبطا منها بعض أحكامها وتوجيهاتها التربوية، من غير تطويل ممل، ولا اختصار مخل، سائلا المولى جل جلاله، أن يجعله لوجهه خالصا، ولذنوبي ممحصا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

**﴿سورة العلق﴾**

**﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾**

**﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)﴾**

**التعريف بالسورة وما جاء فيها من أخبار**

مكية بالاتفاق، والآيات الخمس الأولى هي أول ما نَزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بإجماع أهل العلم[[2]](#footnote-2) ـ بغار حراء، في شهر رمضان، يوم الإثنين. وكان عمره أربعين سنة. قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ [القدر: 1]. ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ**﴾ [البقرة: 185]. ﴿**حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**﴾ [الدخان: 1 - 3].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن بعثته صلى الله عليه وسلم: "بعثه الله على رأس أربعين وهي سن الكمال. قيل: ولها تُبعث الرسل، وأما ما يُذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

«وأول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، والله أعلم.

ثم أكرمه الله تعالى بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه، فأول ما أنزل عليه ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ [العلق: 1] [العلق: 1] هذا قول عائشة والجمهور".[[3]](#footnote-3)

وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة الأنصاري، رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم الاثنين؟ فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل علي».[[4]](#footnote-4)

وعدد آيها في عدّ أهل المدينة ومكة عشرون، وفي عدّ أهل الشام ثمان عشرة، وفي عدّ أهل الكوفة والبصرة تسع عشرة.[[5]](#footnote-5)

وهي السورة السادسة والتسعون بحسب الترتيب المصحفي. وتسمى سورة: العلق. أو سورة: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾. وهذا أصح أسمائها. فعن أبي هريرة،

قال: «سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾، و﴿**إذا السماء انشقت**﴾».[[6]](#footnote-6)

فقد روى الحاكم في مستدركه: عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أول سورة نزلت: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ [العلق: 1] «.[[7]](#footnote-7)

وروى ابن حبان في صحيحه: عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل أول؟، قال: ﴿**يا أيها المدثر**﴾ [المدثر: 1]، قلت: إني نبئت أن أول سورة أنزلت من القرآن: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ [العلق: 1].

قال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل أول؟ قال: ﴿**يا أيها المدثر**﴾ [المدثر: 1]، فقلت له: إني نبئت أن أول سورة نزلت من القرآن: ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ [العلق: 1] قال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: « جاورت في حراء، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي، وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر شيئا، فنوديت، فنظرت فوقي، فإذا أنا به قاعد على عرش بين السماء والأرض، فجئثت منه، فانطلقت إلى خديجة، فقلت: دثروني دثروني، وصبوا علي ماء باردا، فأنزلت علي: ﴿**يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر**﴾. [المدثر: 1 ـ 3].

قال أبو حاتم: في خبر جابر هذا: إن أول ما أنزل من القرآن: ﴿**يا أيها المدثر**﴾ [المدثر: 1]، وفي خبر عائشة: ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ [العلق: 1].

وليس بين هذين الخبرين تضاد، إذ الله عز وجل أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ [العلق: 1] وهو في الغار بحراء، فلما رجع إلى بيته دثرته خديجة وصبت عليه الماء البارد، وأنزل عليه في بيت خديجة: ﴿**يا أيها المدثر، قم**﴾ [المدثر: 1] من غير أن يكون بين الخبرين تهاتر أو تضاد.[[8]](#footnote-8)

وفي الصحيحين عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم**﴾ [العلق: 2] « فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أو مخرجي هم»؟!، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».[[9]](#footnote-9)

**شرح بعض ما جاء في هذا الحديث**

قول عائشة رضي الله عنها: «فجِئَهُ الحق» أي جاءه الوحي بغتة. فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متوقعا للوحي.

قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أنا بقارئ» معناه لا أحسن القراءة. فما نافية هذا هو الصواب.

قوله صلى الله عليه وسلم: «فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني» أي غطني حتى عصرني وضمني وخنقني و»الجهد» المشقة. وأما «أرسلني» فمعناه أطلقني.

قال العلماء: والحكمة في الغط شغله من الالتفات والمبالغة في أمره بإحضار قلبه لما يقوله له، وكرره ثلاثا مبالغة فى التنبيه. ففيه أنه ينبغي للمعلم أن يحتاط في تنبيه المتعلم، وأمره بإحضار قلبه، والله أعلم.

قوله صلى الله عليه وسلم: «ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق». هذا دليل صريح في أن أول ما نزل من القرآن اقرأ. وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف. وقيل أوله يا أيها المدثر وليس بشيء وسنذكره بعد هذا في موضعه من هذا الباب إن شاء الله تعالى.

واستدل بهذا الحديث بعض من يقول إن بسم الله الرحمن الرحيم ليست من القرآن في أوائل السور لكونها لم تذكر هنا. وجواب المثبتين لها أنها لم تنزل أولا بل نزلت البسملة في وقت آخر، كما نزل باقي السورة في وقت آخر.

قولها: «ترجف بوادره» ترجف ترعد وتضطرب وأصله شدة الحركة. والبوادر: هي اللحمة التي بين المنكب والعنق تضطرب عند فزع الإنسان.

قوله صلى الله عليه وسلم: «زملوني زملوني» هكذا هو في الروايات مكرر مرتين. ومعنى زملوني: غطوني بالثياب ولفوني بها:

وقولها: «فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع» أي ذهب عنه الفزع.

قوله صلى الله عليه وسلم: «لقد خشيت على نفسي» قال القاضي عياض رحمه الله: ليس هو بمعنى الشك فيما أتاه من الله تعالى، لكنه ربما خشي أن لا يقوى على مقاومة هذا الأمر، ولا يقدر على حمل أعباء الوحي، فتزهق نفسه.

قولها: «قالت له خديجة: كلا، أبشِر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم...الخ.

قال العلماء رضي الله عنهم: معنى كلام خديجة رضي الله عنها: إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل. وذكرتْ ضروبا من ذلك. وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء، وفيه مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال لمصلحة نظر، أو فيه تأنيس مَن حصلت له مخافة مِن أمر، وتبشيره وذكر أسباب السلامة له. وفيه أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضي الله عنها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها. والله أعلم.

قولها: «وكان امرأ تنصر في الجاهلية» معناه صار نصرانيا. والجاهلية ما قبل رسالته صلى الله عليه وسلم سموا بذلك لما كانوا عليه من فاحش الجهالة والله أعلم.

قولها: «وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله تعالى أن يكتب» هكذا هو في مسلم الكتاب العربي ويكتب بالعربية ووقع في أول صحيح البخاري يكتب: «الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية». وكلاهما صحيح. وحاصلهما أنه تمكن من معرفة دين النصارى، بحيث إنه صار يتصرف في الإنجيل، فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن شاء، وبالعربية إن شاء. والله أعلم.

قولها: «فقالت له خديجة رضي الله عنها أي عمّ اسمع من بن أخيك» وفي الرواية الأخرى «قالت خديجة: أي ابنَ عمّ»؟ هكذا هو في الأصول في الأول عم وفى الثاني ابن عم وكلاهما صحيح.

أما الثاني فلأنه ابن عمها حقيقة ـ كما ذكره أولا في الحديث ـ فإنه ورقة بن نوفل بن أسد، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد.

وأما الأول فسمَّته عمًّا مجازا للاحترام. وهذه عادة العرب في آداب خطابهم. يخاطب الصغير الكبير بيا عمّ احتراما له ورفعا لمرتبته. ولا يحصل هذا الغرض بقولها يا ابن عمّ. والله أعلم.

قوله: «هذا الناموس الذي أنزل على موسى صلى الله عليه وسلم» الناموس بالنون والسين المهملة وهو جبريل صلى الله عليه وسلم. قال أهل اللغة وغريب الحديث: الناموس في اللغة صاحب سر الخير. والجاسوس صاحب سر الشر. ويقال نمَست السِّر بفتح النون والميم أنمِسه بكسر الميم نمساً أي كتمته ونمست الرجل ونامسته ساررته.

وأما قوله: «الذي أنزل على موسى» صلى الله عليه وسلم. فكذا هو في الصحيحين وغيرهما. وهو المشهور. ورويناه في غير الصحيح: «نزل على عيسى صلى الله عليه وسلم». وكلاهما صحيح.

قوله: «يا ليتنى فيها جذعا» الضمير فيها يعود إلى أيام النبوة ومدتها.

وقوله: «جَذَعا» يعني شابا قويا حتى أبالغ في نصرتك. والأصل في الجذع للدواب. وهو هنا استعارة. وأما قوله جذعا فهكذا هو الرواية المشهورة في الصحيحين وغيرهما بالنصب على الحال. وخبر ليت قوله» «فيها» وهذا الذي اختاره القاضي هو الصحيح الذي اختاره أهل التحقيق والمعرفة من شيوخنا وغيرهم ممن يعتمد عليه والله أعلم.

قوله: «وإن يدركني يومك» أي وقت خروجك قوله: «أنصرك نصرا مؤزرا» أي قويا بالغا.

وأما عِلم خديجة رضي الله عنها برجفان فؤاده صلى الله عليه وسلم، فالظاهر أنها رأته حقيقة، ويجوز أنها لم تره وعلِمته بقرائن وصورة الحال. والله أعلم». (بتصرف من شرح النووي).[[10]](#footnote-10)

قال مقيده: قوله صلى الله عليه وسل: «أوَ مخرجي هم»؟!، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي..». فيه فائدتان يجب الاهتمام فهما:

الفائدة الأولى: تعجُّب النبي صلى الله عليه وسلم من أن يصل الأمر بقومه إلى اضطراره للخروج من مسقط رأسه، علما أنهم يعرفونه حق المعرفة، ويحبونه، ويأتمنونه على ودائعهم، ويحكّمونه في خصوماتهم، فهو الأمين الصادق فيهم.

الفائدة الثانية: سُنّة الله تعالى في كل داع إلى الحق من الأنبياء والرسل، ولذلك أجابه ورقة بكل ثقة ويقين: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي".

فليستعد كل مؤمن على مثل هذا الأذى، ما دام يحمل معه دعوة الحق، خاصة عند غربة الدين، وفتنة العصر. فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر».[[11]](#footnote-11)

**قال الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله**: «فقول أم المؤمنين عائشة: «أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». يقوي ما ذكره محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. فقلت: ما أقرأ. فغتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني».

وذكر نحو حديث عائشة سواء.

فكان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرحا بهذا في مغازي موسى بن عقبة: عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في اليقظة.

وروى أبو نعيم في (الدلائل) بسنده عن علقمة بن قيس قال: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد».

قال أبو شامة: وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى عجائب قبل بعثته.

فمن ذلك ما في صحيح مسلم: عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن». (ا.ه)[[12]](#footnote-12)

قال مقيده ـ غفر الله له ـ ومما ورد في هذه السورة، ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: باب: ﴿**كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية**﴾ ثم ساق سنده: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة».[[13]](#footnote-13) وفي رواية الترمذي: عن ابن عباس: ﴿**سندع الزبانية**﴾ قال: قال أبو جهل، لئن رأيت محمدا يصلي لأطأن على عنقه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.[[14]](#footnote-14) وفي رواية: عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ «فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فزبره»، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله: ﴿**فليدع ناديه سندع الزبانية**﴾ [العلق: 18] فقال ابن عباس: «والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله»، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وفيه عن أبي هريرة[[15]](#footnote-15).

**أغراضها ومقصودها**

يقول ابن عاشور رحمه الله عن أغراضها، أن منها:

ـ تلقين محمد صلى الله عليه وسلم الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل.

ـ والإيماء إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء.

ـ وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم.

ـ وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقا عجيبا مستخرجا من علقة فذلك مبدأ النظر.

ـ وتهديد من كذب النبي صلى الله عليه وسلم وتعرض ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى.

ـ وإعلام النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عالم بأمر من يناوئونه، وأنه قامعُهم وناصر رسوله.

ـ وتثبيت الرسول على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله.

ـ وأن لا يعبأ بقوة أعدائه لأن قوة الله تقهرهم. (انتهى).[[16]](#footnote-16)

**قال مقيده:** مما لا شك فيه أن الآيات الخمس الأولى نزلت على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما باقي آيات السورة إلى ختامها فلا دليل على تاريخ نزولها، لكن يترجح عندنا أنها نزلت لما أُمر صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة، فقوبلت دعوته بذاك الإعراض والاستهزاء والسخرية، من قِبل صناديد الكفر، أمثال أبي جهل، والوليد بن عتبة، والأخنس بن شريق، وغيرهم.

وعلى العموم، فإن السورة استهلت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقراءة، وسيتولى خالقه، الذي خلق الخلق أجمعين ـ ومن بينهم الإنسان ـ بتعليمه مباشرة بالوحي، مذكِّرا له الوسيلة التي يتوصل بها الإنسان إلى القراءة، وتحصيل العلم، ألا وهي: القلم. وفي ذلك إكرام وتكريم من رب العالمين، لهذا الإنسان الضعيف، المخلوق من علق.

قال تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [العلق: 1 ـ 5].

ثم بعد مرور وقت من الزمن، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلّع دعوة ربه جهارا نهارا لقومه، فذكَر لنا ربنا عز وجل نموذجا من هذا الإنسان الضعيف، الذي خُلق من علقة، كيف استقبل دعوة رسوله صلى الله عليه، وكيف أخذته العزة بالنفس، وحسِب الغنى مانعا له من عبادة الخالق، فانقلبتْ لديه الموازين، حتى صار يرى الهداية ضلالا، والضلالة هداية، وغفل عن رؤية الله له ومراقبته، فكذّب وتولى، وسخِر من النبي المصطفى!

فمثل هذا النموذج من البشر، الضال المستكبر المتعالي ـ وما أكثره في عصرنا ـ يجب على المؤمن عموما ـ والداعية خصوصا ـ أن لا يَأبَه به، ولا يَلتفِت إليه. بل يُشغل نفسه وقلبه بذكر الله تعالى، والدعاء، والسجود، لينال القرب من الخالق، الذي يرى الظالم والمظلوم، والمهتدي والضال، والتقي والفاجر.

قال تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)**﴾ [العلق: 6 - 19]

**الفوائد المستنبطة من السورة**

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿**اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ وفي الأثر: «قيدوا العلم بالكتاب».[[17]](#footnote-17)

قوله تعالى: ﴿**خلق الإنسان من علق**﴾ [الآية: 2]: فيها دليل على أن الإنسان مخلوق من العلق، وأنه قبل أن يكون علقة ليس بإنسان.

قوله تعالى: ﴿**الذي علم بالقلم**﴾ [العلق: 4]: فيها خمس مسائل:

**المسألة الأولى:** الأقلام في الأصل ثلاثة:

**القلم الأول**: كما ثبت في الحديث: « إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[[18]](#footnote-18).

**القلم الثاني:** ما جعل الله بأيدي الملائكة يكتبون به المقادير والكوائن والأعمال، وذلك قوله تعالى: ﴿**كراما كاتبين**﴾ [الانفطار: 11] ﴿**يعلمون ما تفعلون**﴾ [الانفطار: 12] خلق الله لهم الأقلام، وعلمهم الكتاب بها.

**القلم الثالث**: أقلام الناس، جعلها الله تعالى بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها إلى مآربهم، والله أخرج الخلق من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، وخلق لهم السمع والبصر والنطق ... ثم خلق الله اليد والقدرة، ورزقه العلم والرتبة، وصور له حروفا تعادل له الصور المحسوسة في إظهار المعنى المنقول في النطق، فيقابل هذا مكتوبا ذلك الملفوظ، ويقابل الملفوظ ما ترتب في القلب، ويكون الكل سواء، ويحصل به العلم، ﴿**هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه**﴾ [لقمان: 11].

**المسألة الثانية**: جعل الله هذا كله مرتبا للخلق، ونظاما للآدميين، ويسّره فيهم.

**المسألة الثالثة:** ولكل أمة تقطيع في الأصوات على نظام يعبر عما في النفس، ولهم صورة في الخط تعبر عما يجري به اللسان، وفي اختلاف ألسنتكم وألوانكم دليل قاطع على ربكم القادر العليم الحكيم الحاكم؛ وأم اللغات وأشرفها العربية، لما هي عليه من إيجاز اللفظ، وبلوغ المعنى، وتصريف الأفعال وفاعليها ومفعوليها، كلها على لفظ واحد، الحروف واحدة، والأبنية في الترتيب مختلفة، وهذه قدرة وسيعة وآية بديعة.

**المسألة الرابعة**: لكل أمة حروف مصورة بالقلم موضوعة على الموافقة لما في نفوسهم من الكلم، على حسب مراتب لغاتهم، من عبراني، ويوناني، وفارسي، وغير ذلك من أنواع اللغات أو عربي؛ وهو أشرفها، وذلك كله مما علم الله لآدم عليه السلام حسبما جاء في القرآن في قوله: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ [البقرة: 31]؛ فلم يبق شيء إلا وعلم الله سبحانه آدم اسمه، وذكره آدم للملائكة كما علمه، وبذلك ظهر فضله، وعظم قدره، وتبين علمه، وثبتت نبوته، وقامت حجة الله على الملائكة، وحجته، وامتثلت الملائكة لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر، ثم توارثت ذلك ذريته خلفا بعد سلف، وتناقلوه قوما عن قوم، تحفظه أمة وتضيعه أخرى، والبارئ سبحانه يضبط على الخلق بالوحي منه ما شاء على من شاء من الأمم على مقاديرها ومجرى حكمه فيها، حتى جاء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وتعلم العربية من جيرته جُرهما، وزوجوه فيهم، واستقر بالحرم، فنزل عليه جبريل فعلمه العربية غضة طرية، وألقاها إليه صحيحة فصيحة سوية، واستطرب على الأعقاب في الأحقاب إلى أن وصلنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فشرف وشرفت بالقرآن العظيم، وأوتي جوامع الكلام، وظهرت حكمته وحكمه، وأشرق على الآفاق فهمه وعلمه، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿**كلا لا تطعه واسجد واقترب**﴾[العلق: 19]: فيها مسألتان:

**المسألة الأولى**: قوله: ﴿**واسجد**﴾ [العلق: 19] ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن «أبي هريرة أنه قال: سجدت مع النبي صلى الله عليه وسلم في: ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ [الانشقاق: 1] وفي: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ [العلق: 1] سجدتين»، فكان هذا نصا على أن المراد به سجود التلاوة.

**المسألة الثانية:** قوله: ﴿**واقترب**﴾ [العلق: 19]: المعنى اكتسب القرب من ربك في السجود فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه في سجوده؛ لأنها نهاية العبودية والذلة لله، ولله غاية العزة، وله العزة التي لا مقدار لها.

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء؛ فإنه قمِنٌ أن يستجاب لكم».

وقد قال ابن نافع، ومطرف: وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة، وابن وهب يراها من العزائم». (انتهى من الأحكام بتصرف).[[19]](#footnote-19)

ـ قوله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ الآية.

إن قيل: إن فرعون ادعى الربوبية فقال الله تعالى لموسى عليه السلام في حقه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، وههنا قال في حقّ أبي جهل: ﴿ لَيَطْغَى﴾ فأكّده بهذه اللام، فما السبب في هذه الزيادة ؟!

قال الإمام الرازي رحمه الله فيه وجوه: "أحدها: أنه قال لموسى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ وذلك قبل أن يلقاه موسى ـ عليه السلام ـ وقبل أن يعرض عليه الأدلة، وقبل أن يدعي الربوبية، وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رد عليه ـ أبو جهل ـ أقبح الرد.

وثانيها: أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول وما كان ليتعرض لقتل موسى عليها السلام، ولا لإيذائه. وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإيذاءه.

وثالثها: أن فرعون أحسنَ إلى موسى أولاً، وقال آخراً: ﴿ءامَنتُ أنه لا إله إلا الذي ءامنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾[يونس: 90]، وأما أبو جهل فكان يحسد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صباه، وقال في آخر رمقه: "بلغوا عني محمداً أني أموت ولا أحد أبغض إلي منه"[[20]](#footnote-20) . انتهى[[21]](#footnote-21).

**تنزيل محور السورة على أرض الواقع**

قال مقيده ـ غفر الله له ـ يكاد أغلب المفسرين يشيرون إلى قيمة القراءة وطلب العلم انطلاقا من هذه الآيات الأولى من السورة، وأن الأمة الإسلامية عليها أن تقرأ وتهتم بالعلم، وتكون في مقدمة الأمم. وأن نعمة وقيمة العلم من أعظم النعم. كيف لا، والعلم وسيلة لمعرفة الخالق، وعبادته، والدعوة إليه، وعمارة الأرض؟!

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: «تأمل نعمة الله على الانسان بالبيانين: البيان النطقي، والبيان الخطي. وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه!

فذكر ـ أولا ـ عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي. ثم ذكر ـ ثانيا ـ خصوص خلق الإنسان، لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه ها هنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين، أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق، وهو العلقة. فإنه كان قبلها نطفة، فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة. ثم ذكر ـ ثالثا ـ التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودُرست السنن، وتخبّطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان، فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجلّ النعم. والتعليم به ـ وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه ـ عطية وهبها الله منه وفضلٌ أعطاه الله إياه وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علّمه فتعلّم كما أنه علّمه الكلام فتكلّم.

هذا، ومَن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به، ومَن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومَن الذي أنطق لسانه وحرّك بنانه، ومَن الذي دعّم البنان بالكف، ودعّم الكف بالساعد؟؟!! فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعلم بالقلم؟ فقِف وقفة في حال الكتابة وتأمّل حالك، وقد أمسكت القلم وهو جماد، وضعته على القرطاس وهو جماد، فتولّد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل، فمَن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرّك بها بنانك، حتى صارت نقشا عجيبا، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي مَن ترسله، سوى مَن علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم!!

والتعليم بالقلم يتسلزم المراتب الثلاثة مُرتّبة: الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي. فقد دلّ التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب. ودلّ قوله: ﴿**خلق**﴾ على أنه يعطى الوجود العيني. فدلّت هذه الآيات ـ مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ـ على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى، خلقا وتعليما. وذَكر خَلقين وتلعيمين: خلقا عاما، وخلقا خاصا. وتعليما خاصا، وتعليما عاما. وذكر من صفاته ـ ها هنا ـ اسم الأكرم، الذي فيه كل خير، وكل كمال، فله كل كمال وصفا، ومنه كل خير فعلا. فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبِرّه وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك وهو الغني الحميد!!».[[22]](#footnote-22)

قال مقيده ـ غفر الله له ـ: إن الدعوة إلى القراءة في عصرنا، يكاد كُل الناس يتفقون عليها، ويرفعون شعارها، ففي المغرب ـ مثلا ـ هناك اليوم الوطني للقراءة الذي يحتفل به أصحابه في اليوم العاشر من شهر ماي كل سنة، لكن، ما هي هذه العلوم التي يرغب فيها الناس، ومَن هؤلاء الكُتّاب والمؤلفون الذين سيوجهون الشباب ـ والإنسانية جمعاء ـ بمصنفاتهم ومؤلفاتهم وإبداعاتهم إلى ما فيه سعادتهم؟! حسْبُك ـ أيها المؤمن ـ أن تعلم، أن سبب اختيار هذا التاريخ ـ 23 أبريل ـ ليكون يوما عالميا للكتاب، إنما لكونه في مثله مات اثنان من أشهر الأدباء العالميين وأكثرهما قراءة ـ عند شبابنا:

أولهما: الروائي الإسباني الشهير: ميغيل دي سيرفنتس / Miguel de Cervantes صاحب رواية دون كيشوت الشهيرة / Don Quijote de la Mancha . وفاته: 22/4/1616. والثاني: الشاعر والمسرحي الإنكليزي: ويليم شكسبير / William Shakespeare وفاته: 23/4/1616

وبناءً عليه، ارتبطت القراءة في أذهان كثير من الناس بقراءة الروايات، والمجلات، والقصص الغرامية، والمغامراتية. كما وارتبط في أذهان الناس أن العلم المطلوب، والمشرِّف لصاحبه، هو العلم الدنيوي، مِن هندسة، وطب، وتشريح، وعلم الكواكب، والفضاء، والذرة، والرياضيات، والنبات، والكيمياء، وغيرها! أما العلوم الشرعية، فمحل سخرية ورجعية!!

والحق، أن الإسلام لا يلغي العلوم الدنيوية جملة وتفصيلا، وإنما يعتبرها علوما ثانوية فرعية كفائية، تأتي بعد العلوم الشرعية الأساسية العينية، إذ الغاية من خلق الناس هي: عبادته. وعبادته معناها: العلم به. قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56]. وقال سبحانه: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [محمد: 19]. وأول سؤال يوجَّه للميت في قبره هو: من ربك؟ ما دينك؟ ما تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟ وليس: ما شهادتك؟ وكم هندسةَ بناء أتقنتها؟ وكم عملية جراحية قُمتَ بها؟ وكم نوع من النبات اكتشفته؟ وما هي أنواع الحجارة والصخور درستها؟ ... إلخ. نعم..هذا علم دنيوي نافع، لكنه فرعي تابِع.

فعن البراء بن عازب، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**﴾ قال: «نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم، فذلك قوله عز وجل: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة**﴾ [إبراهيم: 27].[[23]](#footnote-23)

فإذن: لابد من تصحيح مفهوم الدعوة إلى القراءة وطلب العلم في عصرنا، ولشبابنا، وهذه أول خطوة ضرورية لتربية هذا الجيل. لابد من توجيهه لقراءة القرآن ليعرف صفات الذي خلقه من نطفة، ثم خلق النطفة علقة، فخلق العلقة مضغة، فخلق المضغة عظاما، فكسا العظام لحما. وكذلك لابد ـ مع قراءته القرآن ـ أن يقلّب بصره في نفسه، وفي البحار والأنهار، واختلاف الليل والنهار، والنجوم والشجر، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والدواب والهوام .. لقراءة الكون ـ بالتأمل والتدبر. فآيات الله تعالى تتجلى في صفحات كتابه المسطور، وفي صفحات الكون المنظور. وحينها سيقول: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ [آل عمران: 191 - 194].

أما العلوم الدنيوية فتأتي بعد الشرعية، وعلى أصلها يُتقن العبد المؤمن عمله، في الهندسة، والطب، والمعمار، والتجارة، والصناعة، والفلك، والرياضيات، والتكنولوجيا الحديثة، وفي كل علم من العلوم النافعة للبشر في الدنيا والآخرة.

ولن يتأتّى للعبد فهم القرآن إلا بتعلمّه اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ ودراستها والعناية بها. أما وأمّتنا منبهرة بلغة العجم، وشبابنا مُنشغل بتقليد الغرب، والآباء يتسابقون إلى تسجيل أطفالهم في مدارس ذات المناهج الغربية، فلن يكون هناك إقبال على القرآن، ولا على دين الإسلام.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيرا قويا بينا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وعن عمر بن زيد قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «أما بعد: فتفقَّهوا في السُّنة وتفقّهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي».

وفي حديث آخر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: « تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم « وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة، يجمع ما يحتاج إليه؛ لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله».[[24]](#footnote-24)

ـ ومما يستفاد من الآيات: أن قوله تعالى: ﴿**اقرأ**﴾ بصيغة الأمر، مع تكرارها، يفيد وجوب طلب العلم على كل مسلم. كما في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».[[25]](#footnote-25) ويتأكد الوجوب فيمن يتصدى للدعوة والإرشاد، والفتاوى، وتعليم الناس.

ـ الحذر من الطغيان والعصيان والإعراض عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بسبب المال والجاه والغنى. كما كان حال أبي جهل، وكبراء قريش. المشار إليه ـ وإلى كل من كان على شاكلته ـ بقوله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾.

ـ عدم إيمان العبد بأن الله تعالى يَراه، يترتّب عليه الإقدام على المعاصي والآثام، ورؤية الحق باطلا، والباطل حقا. ﴿**أرأيت إن كذّب وتولى. ألم يعلم بأن الله يرى**﴾ ؟! والعكس صحيح. كلما استحضر العبد رؤية ربه له، ونظره إليه، كلما استحيى من اقتراف الذنوب والمعاصي. جعلنا الله وإياكم ممن يستحيي من نظر ربه في الخلوة والجلوة. والسر والعلن.

وفي السورة ـ أيضا ـ فائدة جديرة بالتأمل والتدبّر في عصرنا، وهي: حكمة التدرج في الدعوة والتربية والتعليم والتدريس، إذ لو شاء الله لأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ـ في تلك الليلة ـ القرآن كله. ولكنه نزّل عليه خمس آيات فقط للتدبّر، ولتبليغها سرًّا لقرابته، وبعد ذلك يواجه بها قومه. وهكذا عاش الصحابة رضي الله عنهم مع القرآن، يقرأون آيات معدودة، ويحفظونها، ويعملون بها، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى الآيات الأخرى من السورة. فجمعوا بين القراءة والفهم، وبين العلم والعمل. فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: "إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل. قال: فتعلّمنا العلم والعمل جميعا, وإنه سيرث القرآنَ بعدنا قومٌ يشربونه شرب الماء لا يجاوز هذا، وأشار بيده إلى حَنَكه"!! [[26]](#footnote-26)

فعلى المسلمين عموما ـ والشباب خصوصا ـ الأخذ بالتدرج في كل شيء، بدءً بالقراءة، والحفظ، والفهم، ودعوة الغير، وتنزيل الأحكام الشرعية التي تخص الراعي والرعية على أرض الواقع.

وفيها ـ أيضا ـ قاعدة مهمة عند الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ دينه، وإقامة الحجة على المعاند. إذ على المسلم الداعي إلى دين الله تعالى أن يُلفت نظر المخالف والمعاند إلى ما هو متفق عليه عند جميع العقلاء، بحيث لا يستطيع إنكاره ولا جحوده، فحينها يلزمه بالحجة القاطعة، والأدلة الدامغة.

ـ ومما يستفاد من السورة أيضا: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالناظر المتأمل في السورة يجد شخصيتين متناقضتين، يمثل أحدهما الحق والآخر الباطل، الإيمان والكفر، الهدى والضلال، التقوى والفجور، السجود لله والإعراض عنه. فالنبي صلى الله عليه وسلم يمثل الحق والإيمان والهدى والتقوى والسجود لله جل وعلا. وأبو جهل يمثل الباطل والكفر والفجور والإعراض عن السجود لله جل وعلا.

والوحي المنزّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتباعه والعمل به، منزّل كذلك على أمته، ومخاطبة به ـ إلا ما استثني ـ قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: 2، 3].

وقد كان هذا الصراع بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل ـ وأصحابه ـ في بداية الدعوة، حيث غربة الدين. فكذلك المسلم في هذا الزمان ـ زمان الغربة ـ خاصة الداعي إلى الله تعالى ـ عليه أن لا يكترث بالمستهزئين، فإن إعراضَهم واستهزاءهم بالدين، راجع عليهم ولو بعد حين.

وإنما عليه بالصبر، وكثرة السجود والدعاء. ففي صحيح مسلم: عن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته، رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثا، وإذا سأل سأل ثلاثا، ثم قال: «اللهم، عليك بقريش» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: «اللهم، عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط» - وذكر السابع ولم أحفظه - فوالذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب ـ قليب بدر ـ.[[27]](#footnote-27)

فانظر ـ يا أخي ـ إلى ردّ فعل النبي صلى الله عليه وسلم، ولو شاء لردّ عليهم بالمثل، ولكنه اكتفى بالدعاء. ثم تأمّل قول عبد الله بن مسعود رضي الله: «وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم» !! فالمانع من نصرة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحالة، هو: عدم وجود منَعة، وفئة قوية، معها شوكة، يُستنصر بها لرفع الظلم عن نبي الله صلى الله عليه وسلم. وسيمرّ معنا هذا الخُلق والتعامل مع المعاندين والظالمين في أغلب السور المكية، فلابد من الاهتمام به، والعمل به ـ فرادى وجماعات.

إن سورة العلق ـ التي تعتبر أول سورة نزولا ـ لكفيلة بأن تكشف لنا عن دوافع الطاعة، وعن أساس الانقياد لعبادة الله تعالى، وذلك انطلاقا من التأمّل والتدّبر في مطلع السورة، وآخرها، والربط بينهما، فإذا نحن بين: ﴿**اقرأ**﴾ و﴿**واسجد واقترب**﴾!!

نعم، كل من جدّ في القراءة، وطلب العلم النافع، فقرأ القرآن قراءة صحيحة، وقرأ الكون قراءة مجردة عن الهوى، فإنه سيخرّ ساجدا للخالق، خاشعا متذللا بين يديه: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: 27، 28].

وكل علم لا يوصل صاحبه إلى خشية الله تعالى وطاعته، والإيمان به وتوحيده، فذاك علم ضار، وصاحبه لا يساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**﴾ [الكهف: 103 - 106]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا ﴿**فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105)**﴾» متفق عليه.[[28]](#footnote-28)

ونكتفي بهذا القدر، والله أعلم، ونسبة العلم إليه أسلم.

1. لحد الآن انتهيت من ثلاث سور، وما زال التفسير في طور البداية. أسأل الله تعالى التوفيق والإخلاص. [↑](#footnote-ref-1)
2. أعني الآيات الخمس الأوائل، أما ما تبقى فبعد مدة من الزمن. [↑](#footnote-ref-2)
3. زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 82 ـ 83) [↑](#footnote-ref-3)
4. صحيح مسلم (2/ 820) [↑](#footnote-ref-4)
5. التحرير والتنوير (30/ 433) [↑](#footnote-ref-5)
6. سنن الترمذي ت شاكر (2/ 462) [↑](#footnote-ref-6)
7. المستدرك على الصحيحين للحاكم (2/ 240). [↑](#footnote-ref-7)
8. صحيح ابن حبان - مخرجا (1/ 220). [↑](#footnote-ref-8)
9. صحيح البخاري (1/ 7)، صحيح مسلم (1/ 140) [↑](#footnote-ref-9)
10. شرح النووي على مسلم (2/ 199 ـ 205) [↑](#footnote-ref-10)
11. سنن الترمذي ت شاكر (4/ 526) [↑](#footnote-ref-11)
12. صحيح السيرة النبوية (ص: 87 ـ 88) [↑](#footnote-ref-12)
13. صحيح البخاري (6/ 174) [↑](#footnote-ref-13)
14. سنن الترمذي ت شاكر (5/ 443) [↑](#footnote-ref-14)
15. سنن الترمذي ت شاكر (5/ 444) [↑](#footnote-ref-15)
16. التحرير والتنوير (30/ 434) [↑](#footnote-ref-16)
17. تفسير ابن كثير تحقيق سلامة (8/ 437) [↑](#footnote-ref-17)
18. سنن الترمذي تحقيق شاكر (4/ 458)، مسند أحمد طبعة الرسالة (37/ 378) [↑](#footnote-ref-18)
19. أحكام أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (4/ 419 ـ 425) [↑](#footnote-ref-19)
20. الراجح ـ والله أعلم ـ أن آخر كلمة قالها أبو جهل هي: "هل هو إلا رجل قتله قومه !". قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل، فأصبت يده، فندر ـ أي سقط ـ سيفه، فأخذته فضربته حتى قتلته. انظر السيرة النبوية لابن كثير (2/443). وأما ما ذكره الرازي فلم أجده فيما اطلعت عليه. [↑](#footnote-ref-20)
21. مفاتيح الغيب (32 / 19) [↑](#footnote-ref-21)
22. مفتاح دار السعادة (1/ 278 ـ 279) [↑](#footnote-ref-22)
23. صحيح مسلم (4/ 2201) [↑](#footnote-ref-23)
24. اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 527 ـ 528) [↑](#footnote-ref-24)
25. سنن ابن ماجه (1/ 81). صحيح الجامع الصغير وزيادته (2/ 727) [↑](#footnote-ref-25)
26. فضائل القرآن للفريابي (ص: 241) [↑](#footnote-ref-26)
27. صحيح البخاري (1/ 57)، صحيح مسلم (3/ 1418) [↑](#footnote-ref-27)
28. صحيح البخاري (6/ 93)، صحيح مسلم (4/ 2147) [↑](#footnote-ref-28)